سِلْسِلَةُ : وُصُولِ التَّهَانِي بِتَفْرِيغِ أَشْرِطَةِ الشَّيْخِ مُحَمَّدِ بْنِ هَادِي (5)

لِقَاءٌ بِعُنْوَانِ :

" جُمْلَةٌ مِنَ الوَصَايَا إِلَى الإِخْوَةِ الزَّائِرِينَ مِنْ بِلَادِ لِيبيَا "

للشيخ /

محمد بن هادي المدخلي

– حفظه الله تعالى –

المُدرِّس في الجامعة الإسلامية

بالمدينة النبوية

ألقاه ليلة الجمعة (8/ جمادى الأولى/1439هـ)

في مسجد بدري العتيبي – رحمه الله –

بالمدينة النبوية

(نسخة مخرجة الأحاديث)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، شهادةَ مُقِرٍّ له سبحانه بالربوبية ، والألوهية ، والأسماء والصفات ، كما أنزلها في كتابه المبين ، وأُصلي وأسلِّم على خيرته من خلقه ، نبينا محمد ، رحمته للعالمين ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين ، أما بعد .

فمرحباً بأبنائنا ، وإخواننا ، وأحبتنا ، زَوْرِنا هذه الليلة ، الذين زارونا من بلاد ليبيا ، التي نسأل الله -جل وعلا- أن ينشر فيها الأمن والأمان والإيمان ، ويعمَّ بذلك جميع أرجائها ، وينصر فيها أهل الحق وجند الإيمان ، ويقمع أهل الباطل ودعاة الفرقة - أعوان الشيطان - ، إنه جوادٌ كريم .

فمرحباً ، وأهلاً ، وسهلاً بكم جميعاً ، وحياكم الله ، وأسأل الله - جل وعلا - أن يعينكم على أداء ما جئتم له ؛ وهو هذه العمرة ، كما أسأله -جل وعلا - أن يتقبل منكم زيارة مسجد رسوله صلى الله عليه وسلم ، بهذه المدينة الطيِّبة -طيْبة الطيِّبة - ، وأسأله -جل وعلا - أن يرزقنا جميعاً وإياكم الفقه في الدين ، والبصيرة فيه ، والثبات على الحق والهدى حتى نلقاه ، إنه جوادٌ كريم .

معشر الأحبة : إنَّ من أعظم ما يوصى به : العلم ؛ وقد كَثُر الكلام في ذلك ، ولكن ليس كل غادٍ ورائحٍ إلى حِلَقه مُحصّلاً له ، فالرائحون كثير ، والغادُون كثير ، والمحصِّلون قليل ، المحصّلون على الحقيقة قليل ، وإلا الرائحون الذاهبون الغادُون كثير .

ولعل سائلاً يسأل : فكيف الطريق إلى التحصيل ؟

وقد أجبنا على هذا كثيراً ، وهو معلوم ، ومنشور ، ولكننا الليلة أحببنا أن نعيده لنزيد في توكيده .

معشر الأحبة : إنَّ التحصيل الصحيح إنما هو بالتأصيل الصحيح ، فإذا صحّ التأصيل أثمر الصحيح في التحصيل ، وليُعلم أن التأصيل الصحيح يقوم على ثلاثة أركان :

أولاً : اختيار الكتاب ، **وثانياً** : اختيار المعلِّم ، **وثالثاً** : الحفظ .

أولاً : حسن الاختيار للكتاب ، وثانياً – معشر الأحبة– حسن اختيار المُعلِّم ، وثالثاً : الحفظ .

فإنَّ التأصيل يقوم على هذه الأمور الثلاثة .

فأما حسن اختيار الكتاب : فأنت تختار بخيرة الأشياخ إذا كنت لا تعرف ، تختار الكتاب الراجح في كل فن ، الذي عليه المعوّل والعمل في هذا الفن .

وفي هذا الباب نقول : إنَّ الراجح والذي عليه المعوّل والعمل في هذا الباب في كل فن هو المشهور عند العلماء طَرقُه ، ونعني بطرقِه : تدريسه ، وشرحه بين الناس ، وتجد مع ذلك العلماء من قبل على هذا ، فتجد الشروح الكثيرة الوفيرة على هذا المتن بين العلماء ، وما كثرة الشروح له في السابق واللاحق والمعاصرين لك إلا دليلٌ على رجحانه ، ودليلٌ على أنَّ أكثر التداول بين الناس له ، وهو بذلك يريحك من العناء الكثير ، الذي تتعبه في كتب لم تُطرق من قبل ، فإذا حرصت على هذه الكتب ، فأخذتها ، وقرأتها على ذلك المعلم ، وحفظتها ، سرت مسار العلماء قبلك ؛ لأنهم قد سبقوا في هذا الطريق ؛ فحفظوا هذه الكتب ، واعتنوا بها قراءةً ، وتدبراً ، وتأملاً ، وتفقهاً ، أخذوها على أيدي العلماء والمشايخ ، وراجعوها في كتب الشروح ، فيحصل لك العلم بهذا الفن في هذا الكتاب .

فمثلاً الآن ترى الناس علمهم على ألفية ابن مالك ولّا ابن معطي في النحو ؟ ابن مالك ، مَنْ يعرف ابن معطي ؟ إلا في الذِّكر ، وحتى أهل الاختصاص قلَّ بل ندر منهم من يرجع إليها ، فالمدرسة مدرسة ابن مالك – رحمه الله تعالى – فأنت ما تدع ابن مالك وتذهب لابن معطي ، فإنك عبثاً تحاول ، ويذهب عليك كثير من الوقت ، مع أن الأصل الموجود هنا موجود هنا ، وفي ابن مالك الزيادة ، وعلى ابن مالك الشروح ، والحواشي ، والاعتراض ، والانتصار ، والتصحيح ، والتصويب ، فتجد هذا وافراً عليه بما لا تجد عُشْر عُشْر عُشْر عُشْر عُشْر معشاره على ابن معطي ، فهل يُعقل أن تدع ألفية ابن مالك لألفية ابن معطي ؟ ما يُعقل ، وهكذا قس في هذا الباب بقية الفنون ،

فعليك بالمشهور الذي مشى فيه من مشى قبلك ، وإياك والمغمور ، هذا أولاً .

ثانياً : حسن الاختيار للمعلم ؛ فعليكم بأهل السنة ، لأنهم مأمونون ، حتى ولو قلّ العلم عند بعضهم في بعض البلدان ، أو في بعض الحِلَق ، أو في بعض الفنون ، فإنَّ جانبهم مأمون ، تتلقون على أيديهم وأنتم آمنون ؛ لأنَّ هؤلاء مأمونون ، فلا يأتيكم من قِبَلهم إلا الخير ، وهذا لا يكون إلا في من اشتهرت بين الناس مكانته ، وأقرُّوا له بذلك ، فلم يعترضوا عليه ، ولم يُختلف فيه ، أو من أثنى عليه أهل العلم ، وشهدوا له ، وحثوا الناس على الأخذ عليه ، ولم يوجد ما ينقض من كلامهم من ذلك شيئاً ، فإن هؤلاء هم الأهل لأن يُؤخذ عليهم ، ويُقْعد إليهم ، ويُتلقى عنهم .

وليس كل من جلس للتدريس استحق اسم المدرس – كما قلنا بالأمس القريب –لأننا في زمن كَثُر فيه الأدعياء ، وقل فيه الأتقياء .

ونسأل الله –جل وعلا – أن يجعلنا وإياكم من أهل تقواه ، كما أسأله – سبحانه وتعالى – أن يثبتنا وإياكم على الحق والهدى حتى نلقاه .

والمعلم الصادق الناصح هو أبٌ للمتعلمين ، يحوطهم بعنايته ، ويكلؤهم برعايته ، يصغي إلى حاضرهم ، ويُقبل إليه بما ينفعه ، ويُنبِّه غافلهم ، ويَعَلِّم جاهلهم ، ويتفقد غائبهم ، حرصاً منه على الخير ، اتباعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنه قد كان عليه الصلاة والسلام يتفقد أصاحبه ويسأل عنهم : ما بال فلان ، ما بال فلان : صلى الله عليه وسلم .

فالمعلم أبٌ للمستفيدين للطلاب ، فعليه أن يوسّع صدره ، وأن يُظهر للطلبة والوافدين عليه الرحمة ، والمحبة ، والشفقة ، والحرص على إيصال الخير إليهم بكل وجه يستطيع إيصاله به إليهم ؛ لأنه أبٌ للجميع ، ووالدٌ للجميع ، وهؤلاء أبناؤه ، فكم من عالم ليس له ولد ، نشر علمه أولاده الذين علّمهم ، كم من عالم أيضاً ليس له مؤلَّف لكن كَثُر ذكره بسبب طلابه ، فالأئمة الأولون كثيرٌ منهم لا توجد لهم مؤلفات ، لكن النقل عنهم حفظ

أسمائهم ، فطلابك الأخيار هم أبناؤك الأبرار ، وأما الفجار فلا خير فيهم ، وهؤلاء هم الذين يختلون الدين بالدنيا ، –نسأل الله العافية والسلامة– .

فعلم المعلم : أن يتفقد أبنائه وطلابه ، هذا هو المعلم الذي يستفاد منه ، فأنتم عليكم بالبحث عن المعلمين ، ولا تجلسوا لكل أحد ، يقول مالك رحمه الله : (أدركت في هذا المسجد سبعين ، كل واحد منهم لو جعل على بيت مال المسلمين لكان أمينا ، ولم نأخذ عنه ، حتى قدم محمد بن مسلم بن شهاب الزهري فابتدرناه ، لأنه يدري هذا الشأن) يعني علم الحديث والسنة ، سبعين في ذلكم الزمان ، يقول عنهم مالك هذا الكلام ، كيف لو أدرك مالك زماننا اليوم ؟ ما عسى أن يقول فينا ؟

فلا بد – معشر الأحبة – أن يُنظر إلى من يؤخذ عليه ، فإنه هو المفيد الناصح ؛ المفيد لك بالعلم ، والناصح لك بما ينفعك في دينك ودنياك وأخراك ، هذا هو المعلم الصحيح الذي يُسمى معلما ، فإذا ظفرتم به فعضُّوا عليه بالنواجذ .

والثالث : الاعتناء بالحفظ ؛ فإن المرء إذا تعلّم ولم يحفظ ما كأنه تعلّم ، فالحفظ هو العلم ،

إنما علمك ما تحفظه . . . . مع فهمٍ وتوقٍ من غلط

وإنما التعليم بالتعلّمِ . . . . والحفظ والتدقيق والتفهُّمِ

فالحفظ هو العلم – معشر الأحبة –

إذا لم تكن حافظاً واعيا . . . . فجمعك للكتب لا ينفع

لأنَّ العلم يبقى معك في صدرك ، أما الكتب ففي بيتك في الخزائن ، فاعتنوا بالحفظ للمتون في مختلف الفنون ، فهذا الذي يبقى معكم يسافر معكم ، ويقيم معكم ، أينما حللتم حلّ معكم .

وكنزاً لا تخاف عليه لصاً . . . . خفيف الحمل إن أنت ارتحلتا

وصيته لابنه أبي بكر

أبا بكر دعوتُك لو أجبتا . . . . إلى ما فيه حظك لو عقلتا

إلى أن قال له هذا البيت :

. . . . إلى علم تكون به إماما

﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: 24]

فبالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين ، والصبر واليقين لا يكون إلا بالعلم .

﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: 69]

وكما قال جل وعلا لرسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 127-128]

كما سبق في الآية التي قبل ، فأهل الإيمان والتقوى والإحسان هم أهل العلم العارفون بالله جل وعلا ، فلا يمكن أن يتأتى إلا بهذه الطريقة ، فالعلم يبقى معك بالحفظ ، وقد يأتي عليك وقت تسافر ، وربما تُسفَّر ، وربما تُحبس ، أو تُطرد من بلد ما ، ما يدري الإنسان حوادث الزمان ، ما يدري ، فإذا لم يكن معك المحفوظ ما كأنك تعلمت ، (أنا ما ذا يعمل بي أعدائي) [1] ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – ، إخراجه من بلده سياحة ، وسجنه خلوة ، وقتله شهادة ، ما الذي بلّغه هذه المكانة ؟ العلم ، إذا حُبس أَنِس بالله ، تفرّغ لعلمه ولعبادة ربه ، ما تضيق عليه الدنيا ، إذا طُرِد كان سياحة في سبيل الله جل وعلا ، أينما حل نفع الله به .

وشيخ الإسلام نفع الله به في الشام ، طُرِد إلى مصر فنفع الله به في مصر ، أُعيد إلى الشام نفع الله به في الشام ، قبله الحافظ عبد الغني المقدسي في الشام نفع الله به نفعاً عظيماً ، أخرجوه إلى مصر ، نفع الله به ، طلع إلى الاسكندرية نفع الله به ، عاد إلى القاهرة نفع الله به ، فالعلم هو المحفوظ – معشر الأحبة –

. . . . خفيف الحمل إن انت ارتحلتا

---

[1] قال ابن القيم – رحمه الله – في كتابه : " الوابل الصيب " (ص 48) عن شيخه شيخ الإسلام – رحمه الله – : (وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي ؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة) .

فإذا لم يكن حفظ فلا علم ، فأوصيكم - معشر الأحبة بذلك - ، فأنتم إذا حققتم هذا حصل لكم التأصيل الصحيح ، وإذا حصل التأصيل الصحيح أثمر التحصيل الصحيح ، فالتحصيل ثمرة تصحيح التأصيل .

والآن - أنتم - ترون الفوضى العلمية في كثير من طلبة العلم ؛ إما لأنه لم يكمل كتاباً ، أو لأنه أكمله هذاً ، لم يُدقّقه ،

. . . . والحفظ والتدقيق والتفهم

وإما لأنه لم يأخذه على عالم ، وإنما أخذه على مثله ، أو قرأه بنفسه ، هذا كله لا يفيد .

فعلى طالب العلم أن يتأصل ، فمن تأصّل توصّل بإذن الله وحصّل .

ثم أوصيكم بأمرٍ ثاني : ألا وهو : احترام ما تتعلمون ؛ وذلك بالعلم به ، وتطبيقه ، احترام العلم ا لذي تتعلمونه ، وتتدبرونه ، وتفهمونه ، وذلك بالعمل به ، وتطبيقه في حياتكم ، فإن المرء إنما تعلم ليعمل .

﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ** ﴾[محمد:19]

فعليك أن تُطبِق العلم بالعمل ، فإن " العلم يهتف بالعلم ، فإن أجيب وإلا ارتحل " ، فمن احترم علمه وعمل به ، أورثه الله احترام الناس ، ومن تلاعب في علمه ونحّاه جانباً كأنه لم يتعلم أورثه الله احتقار الناس ، فأنت بين احترام الناس واحتقار الناس ، فاختر لنفسك ، فإذا تعلم العبد عارٌ وعيبٌ عليه أن يعود شِبه عامي ، إن لم يكن عامياً ، ما كأنه تعلم ، تهزه الهوازر ، وتلعب به أرياح الأهواء والبدع ، وتلعب له أرياح الشبهات ، تارةً يمنة وتارة يسرة ، فتنظر إليه هذا تعلّم ! يا الله العجب ، لو كان عامياً كان خيراً له ، كأنه ما تعلّم ، ولا استفاد شيئاً من القواعد ، ولا من الأصول ، فهذا في الحقيقة علمه لم ينفعه ، فهو والعوام سواء .

واحذروا التقليد ، **الوصية الثالثة** ، **أوصيكم ونفسي بالحذر من التقليد** ، فإن التقليد آفة ، ولا يُصار إليه إلا عند الضرورة ، أقصى ما يكون الإنسان في الاضطرار يصير إليه ، فطالب العلم الذي تعلّم وتأصّل وعرف الأصول والقواعد ؛ اللغة العربية نحواً وصرفاً ، عرف أصول الفقه التي يستنبط بعا الأحكام ، عرف أصول

التفسير ، عرف أصول الحديث ، التي تُعرف بها الصحيح من الضعيف ، وقرأ في شروح الحديث ، وقرأ في كتب الفقه ، هذا عيبٌ عليه أن يقلِّد وهو يعرف الهدى والحق بدليله .

فالعلم معرفة الهدى بدليله . . . . ما ذاك والتقليد يستويانِ

والجهل داء قاتلٌ ودواؤه . . . . أمران في التركيب متفقانِ

نصٌ من القرآن أو من سنة . . . . . وطبيبُ ذاك العالم الرباني

فالتقليد ما يُصار إليه إلا عند الضرورة ، ونحن ما نقول الناس كلهم أهل اجتهاد ، لا ، هناك العالم المجتهد ، وهناك العالم المتبع ، وهناك طالب العلم المقتدر على أن ينظر في الأدلة ، كما نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله تعالى – ، ونقلت ذلك عنه في كتاب " الإقناع " [1] ، طالب العلم المتمكن إذا أراد الحق وبحث عنه فإنه يوفقه الله ، كما قال – رحمه الله تعالى – ، ينظر في الأدلة ، يُطبِّق القواعد ، القواعد الاصطلاحية في التصحيح والتضعيف ، الأصولية في الاستنباط ، وهكذا ، هذا يوفقه الله –جل وعلا– ، إذا علم منه الإخلاص ، والتجرد ، وقصد الحق ، وإرادة الحق ، فإن الله يوفقه .

والأمر الرابع الذي أوصيكم به – معشر الأحبة – : هو اختيار الصاحب المعين لكم في هذا الباب ، الذي يأخذ باليد منك إن كسلت فينشطك ، ويأخذ بيدك إن جهلت فيعينك ، ويصحح لك ، ويأخذ بيدك إن غفلت فينبهك ، فدائماً أنت معه في اغتباط وازدياد .

وإياكم ثم إياكم بصبحة البطّالين ، إياكم ثم إياكم وصحبة البطّالين ، الذين مجالسهم كلها لا خير فيها ، كلها تذهب لغواً وكلاماً ، والمرء يُظلِم – والله – قلبه إذا ذهبت عليه أوقاته ، ولا يستغلها ، ولا يحزم فيها ، العمر قصير ، والعلم كثير ، والآخرة قريبة ، والدنيا مودِّعة ، ولا ندري متى نرحل ، ولا ندري ما يهجم الضيف الذي هو الموت ،

[1] كتاب " الإقناع بما جاء عن أئمة الدعوة من الأقوال في الاتباع " للشيخ محمد بن هادي المدخلي حفظه الله .

هو الموت ما منه ملاذٌ ومهربُ . . . . إذا حُطَّ ذا نعشه ذاك يركب

فنسأل الله – جل وعلا – أن يحسن لنا ولكم الاستعداد له ، وإنما الاستعداد يكون العلم والعمل الصالح ، والصاحب الصالح نِعم المعين لك – بإذن الله تبارك وتعالى – فاصحب أهلَ التقى ، وأهل الهمم العالية ، عليكم بهؤلاء ، واحذروا صحبة البطّالين ؛ الذين ينبسطون إذا ضيعتم معهم الأوقات ، وتضيق صدورهم إذا ذاكرتموهم بالعلوم ، احذروا هؤلاء ، وعليكم بالصنف الأول الذين تنتفعون منهم في دينكم ودنياكم .

ثم أوصيكم بالأمر الخامس : وهو أن تبذلوا للناس ما تعلمتموه ، فتدعوهم إلى الخير ، فإن الله جل وعلا قال :

﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ [التوبة :122] ، وإنذار الناس يكون بتعليمهم للخير ، بتعليمهم الخير ، وتحذيرهم الشر ، وهذا لا يكون إلا من العالم ، وطالب العلب ، فإن من دعا إلى الله على بصيرة هو الذي ينفع الله به .

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف :108]

قال –جل وعلا –: ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾ [الشورى: 15] .

﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ [النحل :125]

هذا الذي أمر به رسوله ، ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾[الشورى: 15] ، ﴿ **وَمَنْ تَابَ مَعَكَ** ﴾[هود: 112]

﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف :108]

هذا الذي أمره الله به ، قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال الله فيه : ﴿ **فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ** ﴾[الشورى: 15] ، ﴿ **وَمَنْ تَابَ مَعَكَ** ﴾ [هود: 112]

وفي الآية الثالثة التي سمعتموها ، فالدعوة إلى الله –جل وعلا – إنما تكون بالبصيرة وهي العلم .

﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ** ﴾ [النحل :125]

فإذا لم تكن على طريقة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– التي أمره أن يكون عليها :

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[الشورى: 15] ،﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾[هود: 112] ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ ﴾ [يوسف:108] ، فإذا لم تكن معك البصيرة كيف تجادل بالحجة ؟ ما عندك علم ، ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125] ، فلذلك لا يمكن أن تحصل المجادلة بالتي هي أحسن إلا لمن علم ،

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:125] .

مَن يعرف هذا ؟ أهل العلم ، فالدعوة إلى الله لا تكون إلا بالعلم ، الذي أمرنا الله جل وعلا أن نكون عليه ،

﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[الشورى: 15] ،﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾[هود: 112] ، الأمر هو الذي في هذه الآية ، ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:125] .

فإذا لم يكن عندك علم كيف تجادل ؟ وكيف تَعِظ ؟

إذن تبين من هذه الآيات الآتي : أن الدعوة إلى الله هي طريق الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم .

الثاني : أن الله أمرنا أن نكون على ما كان عليه رسوله صلى الله عليه وسلم : ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾[الشورى: 15] ،﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾[هود: 112] ، كما أمرت ، والأمر الذي أمرنا به هو في قوله :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:125] ، ﴿ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:108] فقوله : ﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ [يوسف:108] هم الذي قيل فيهم : ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾[هود: 112] ، فالواجب بث العلم ، ونشره حتى ينزل مكان الجهل ، ويرتفع الجهل ، وينقشع ظلامه ، فيعلم الناس.

وليُعلم أول ما يجب علينا وعليكم جميعاً دعوة الناس إلى توحيد الله جل وعلا ، وإفراده بالعبادة ، تحقيق التوحيد ، توحيد العبادة ، الذي لو لقينا الله بكل عمل صالح ولم يكن معنا لم ينفعنا ذلك العمل الصالح ،

﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:88] ،

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [الزمر:65-66] ، وقال جل وعلا في الكفار : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾ ثم قال : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾[الزمر:67]

هؤلاء المشركون لا ينفعهم أي عمل يعملونه مع وجود الشرك ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾[الزمر:65] ، ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام:88] ، ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً ﴾ [الفرقان:23] ،لما ؟لأنهم لا إيمان معهم .

فأول ما يجب أن ندعوا الناس إليه هو إخلاص العبادة لله – جل وعلا – ؛ بإفراده – سبحانه وتعالى – بهذه العبادة ، من صلاةٍ ، وصيامٍ ، وزكاةٍ ، ونذرٍ ، وحلفٍ ، وخوفٍ ، ورغبةٍ ، ورهبةٍ ، وإنابةٍ ، وخشوعٍ ، وخضوعٍ ، ودعاءٍ ، وطوافٍ ، واستغاثةٍ، واستعاذةٍ ، لا تكون إلا له – سبحانه وتعالى – ، ثم وصْفه بما وصف به نفسه في كتابه الكريم ووصفه به نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم في حديثه الصحيح المنقول عنه – عليه الصلاة والسلام – فيُعلّم الناس هذا ، فلو لقوا الله به مع قليل العلم نفعهم ، ولوا لقوا الله بكثير العمل مع عدمه لم ينفعهم ، فاعتنوا به .

ثم بلِّغوا الناس ما تعلمتموه لقوله جل وعلا ، الآية التي تلوناها في أول حديثنا : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:122] ، يحذرون عذاب الله ، وسخطه ، وأليم عقابه ، ويستقيموا على أمره جل وعلا ، وطاعته سبحانه وتعالى ، هذا هو الواجب علينا – معشر الأحبة – ، فإن من قام في هذا الباب وفقّهه الله –جل وعلا– وأعانه .

وأوصيكم آخر ما أوصيكم به : بإخلاص النية في الذي تقدم كله ، فإن من علم الله منه الإخلاص ، أظهره على من ناوأه ، وأقبل عليه بقلوب العباد ، فإن قلوب العباد بين إصبعين من أصابع الرحمن– سبحانه وتعالى –

كما أخبر بذلك النبي -صلى الله عليه وسلم- ، هو الذي يُقبل بالقلوب ، وهو الذي يضفي بها ، سبحانه ، لا أحد وهو الرافع الخافض - سبحانه وتعالى - ، لا أحد من خلقه ، هو الذي يعز وهو الذي يُذل .

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران26] ، - سبحانه وتعالى - ، آمنت به وعليه توكلت ، فالقلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن ، فإن علم الله منك الصدق والإخلاص كتب الله لك القبول .

ولا يضيقنَّ صدرك أيها الأخ الداعي إلى الله من قلة التبع والمستجيب ، احرص على هداية الناس ، وابذل كما أمرك الله ، وابشر بالخير ، واعلم أن الكثر ليست بالمعيار ، قال -جل وعلا- : ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:106]

قال : ﴿ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام:116]

وقال النبي -صلى الله عليه وسلم- : " يأتي النبي وليس معه أحد " [1] ، فهذا دلالة على فساد المدعوين ، لا على عدم معرفة الداعي وعدم فقه الداعي ، لا ، هذا توفيق الله جل وعلا .

نوح ما آمن معه إلا قليل ، بعد ألف سنة إلا خمسين عاما ، ﴿ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود:40] ، صلوات وسلامه عليه ، فلا تبتئسوا ، ولا تكتئبوا إن رأيتم قلة المقبل ، فلأن يهدي الله بكم رجلاً واحداً خير لكم من حُمر النَّعم ، كما أخبر بذلك النبي صلى الله عليه وسلم ، فاصبروا واحتسبوا ، " انفذ على رسلك " كما قال عليه الصلاة والسلام لعلي بن طالب : " فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حُمر النَّعم " [2] .

واصبروا في هذا الباب :

واصبر على لاحقٍ من فتنة وأذى . . . . فيه وفي الرسل ذكرى فاقتدي بهمِ

---

[1] رواه البخاري في "صحيحه" برقم (5752) .

[2] رواه البخاري في "صحيحه" برقم (3009) .

لواحدٍ بك يهديه الإله يكن . . . . غداً لك خيرٌ من حمر النَّعَمِ

أسأل الله – سبحانه وتعالى – بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يُبصِّرنا وإياكم بمراشد أمورنا ، وأن يزيدنا من الخير ، وأن يفقهنا وإياكم في الدين ، وأن يُبصِّرنا وإياكم فيه ، وأن يثبتنا وإياكم على الإسلام والسنة حتى نلقاه .

كما أسأله – سبحانه وتعالى – أن يعيننا وإياكم على مراضيه ، وأن يجنبنا وإياكم أسباب سخطه ، وأسأله – سبحانه وتعالى – أن يهدي ضال المسلمين في كل مكان ، وأن يُصلح أحوالنا وأحوالكم وأحوال عموم المسلمين في كل مكان حُكّاماً ومحكومين ، إنه جوادٌ كريم .

وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسولنا ، نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسانٍ إلى يوم الدين .